صناعة الحياة

صناعة الحياة هي أن يكون لك موقع في هذا العالم، فتكون رقماً له قيمة لا صفراً على شمال العدد، ومعنى ذلك أن تساهم في البناء والعطاء بما تستطيع لا أن تكون حملاً ثقيلاً على الأمة، إن النحلة الميتة ترمى خارج الخلية لأنه لا قيمة لها، وإن الشجرة اليابسة تزال من الحديقة لأنه لا نفع من ورائها. فما هو جزاء إنسان سميع بصير لا يعطي ولا ينتج ولا يعمل، الطالب الذي ترك الدراسة بلا عذر وجلس مع أمه في البيت ما جزاؤه إلا سوط لاذع حتى يهبَّ مذعوراً إلى مدرسته، العامل الذي فضل النوم على العمل ما حقه إلا الزجر والحرمان حتى يتوب من إعراضه، والعالم الذي اشتغل بنفسه فحسب وترك نفع الناس يسقط من سجل الخالدين أهمل التضحيات والمثل، فيا من أراد الخير بنفسه ولأمته لا تكن نسياً منسياً ومتاعاً ساقطاً:

وما للمرء خير في حياة إذا ما عُدّ من سقط المتاع

إن أرخص موجود هو ذاك الإنسان الآكل الشارب النائم الذي جفت منابع نفعه ونضبت أودية خيره وحق له أن يسقط من عيون النبلاء، لأنه محا اسمه من دفتر الحياة وشطب على رقمه من لوحة العطاء والتضحية فهو في عالم الأموات ولكنه يأكل ويشرب وفي دنيا المقابر غير أنه يضحك وينام ومثله يساهم في غلاء الأسعار لكثرة ما يأكل ويشارك في شح الماء لكثرة ما يشرب، الناس متجهون إلى الأمام

يبنون وينتجون وهو متجه إلى الخلف لأنه عكس النماء والبناء وضد النفع والعطاء وعدو النجاح والتفوق.

إن قافلة الحياة لا تنتظر الخاملين فهي مُعدّة لركوب صنَّاع الحياة والمقاعد محجوزة والوقت لا ينتظر أحداً وليس في حافلة النجاح مقعد واحد للتافهين.

النَّملة والنجاح

من أعظم الدروس المشهودة في عالم النجاح النَّملة وكيف أنها تعيد محاولتها مرات ومرات حتى تصل إلى غايتها فهي تتسلق الشجرة فتسقط ثم تعاود الصعود فتسقط وهكذا حتى تنجح في الصعود والحصول على المطلوب من دون كلل ولا ملل وإذا أغلقت عليها طريقها أخذت ذات اليمن وذات الشمال وإذا صعب عليها الصعود تأخرت ثم عادت أقوى مما كانت وربما تبتعد عن طريقها الأول لبعض العوارض لكنَّها تعود في نفس الاتجاه حتى تصل ولها قوة عجيبة في الإصرار على المطلوب وعدم اليأس حتى ضرب بها المثل وذكروا أن أعرابيًّا سافر لقضاء حاجة فلما تعب من السفر جلس يفكر في عودته من سفره فرأى نملة تصعد صخرة فتسقط ثم تصعد فتسقط مرات كثيرة ثم صعدت حتى علت الصخرة فقال: أنا أحق بالصبر والمثابرة من هذه النملة فواصل سفره وأدرك مطلوبه وقال:

اطلب ولا تضجر من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا

أمـــا تـــرى الحبـــل بطـــول المـــدى علـــى صليـــب الصخـــر قـــد أثّـــرا

إن في حياة النملة عبرة لقوم يعقلون كفاح وصبر وإصرار ومثابرة ومواصلة، ثم إن النملة لها من الاحتيال لنيل مطلوبها ما يفوق الوصف، فقد ذكر من ألّف عن النَّملة أنها تدخر قوتها من الصيف إلى الشتاء لأنها لا تخرج في الشتاء كثيراً فتخزن قوت الشتاء ولا تأكله إلا في حينه وخوفاً من أن ينبت الحب المخزون، تقوم بإذن الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى بكسر الحبة من وسطها لئلا تنبت، وإذا مرت في طريقها بخليج ماء صغير لا تستطيع عبوره تشكل النمل مع مجموعة منها جسراً فوق الماء حيث تتشابك النمل فوق معبر الماء كالجسر فإذا مرت جميع النمل من فوق هذا الجسر انسحب جسر النمل إلى الطرف الآخر فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!!

وإذا وجدت نملة قطعة لحم أو رجل جرادة ولم تستطع حملها أو جرها ذهبت إلى بيت النمل فأحضرت أخواتها من النمل فحملوها معها، والنمل فيه من الإصرار والمثابرة ما فيه عبرة لمن أراد النجاح حتى أنك لو وضعت في طريق النمل حجراً لوقفت النملة غير راجعة إلى الوراء بل منتظرة أو محاولة صعود الحجر أو الإتيان عن يمينه ويساره أو اختيار طريق آخر إلى نفس الاتجاه دون رجوع.

كلام غيّر التأريخ

خطب ﷺ خطبة ضافية في بدر قرَّبت الجنة لعشاق السعادة،

وبغَّضت البقاء عند محبي الدنيا، وسهلت الموت على طالبيه، والقتل على راغبيه، فتسابق المؤمنون على وقع كلامه ﷺ وكأنهم في صراع الأعداء يلجون أبواب الجنة الثمانية، وفي نزال الكفار يطوفون بالكوثر، وفي حزّ هامات الوثنيين يتحسّون الكأس الدهاق في جنات عدن.

وخطب ﷺ قبل أحد بيوم فأبى الأبطال البقاء في المدينة، وحثّوا السير إلى أُحد ورنين الخطبة في الآذان كأنها طلائع الجيوش، ورايات الكتائب، وأعلام الجنود.

ولما مات ﷺ وقع الخطب الجلل والحدث المدلهم، فقام أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فعزّى في المصاب، وسَلَّى في الخطب، ودمل الجراح، ومسح الدمع، وأعاد للهمم توقدها، وللنفوس إشراقها، وللضمائر حياتها.

فكأن الكلام الذي ارتجله كلام جديد، هبط من الغيب على أجنحة القبول، وهبط من الفلك على أوسمة المحبة.

عبر طارق بن زياد البحر، ولقي العالَم الكافر، واحتدم الهول، وقامت قيامة الأبطال، فهتف بخطبة طنَّت لها آذان الشجعان، ورنَّت لها رماح الأقران، وتقدم على صليلها الجبان فهو يزبد ويرعد، والصفوف تتقدم، والمنايا تقع على الرؤوس، والموت يداعب النفوس، فإذا جيش المسلمين على هدير خطبة طارق يطرق باب الفتح، ويدق جرس الانتصار، ويعفّر أنوف الطغام برغام المعركة.

كان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إذا خطب فجّر ينابيع

البيان، يأخذ الأرواح طواعية، ويأسر النفوس أسراً، ويكسر جماجم الفصاحة على رؤوس الأشهاد كسراً.

يرتجل الخطبة فكأن كل جملة لوحة هائمة في الجمال، روعة في الحسن، غاية في النفاسة، فعليٌّ أبو الحسن هو الفصاحة وهي هو.

وكان ابن الجوزي يعظ الناس فتقع في مجلس وعظه صور غير عادية في حياة الناس.. انخلاع في النفوس، تدفق في الدموع، ذهول في الجمهور، وجل في قلوب الحضور، فذاك يصرخ تائباً، وهذا ينتحب نادماً، وهذا يُغمى عليه، وذاك ينسحق تحت سياط الوعظ.

بعض الخطباء يخطب في الجلوس، فيجثون على الركب، ويزحفون إليه، وتنقطع أبصارهم فيه.

بعض الخطباء يخطب في الجموع فلا تنبس شفة، ولا تتحرك أنملة، ولا يرمش طرف.

وبعض الخطباء إذا خطب قعقع منبره بهدير صوته، وصار جمهوره في قبضته، وأصبح مستمعوه طوع يمينه، وآخرون إذا خطبوا انسابوا كالماء هدوءًا وسكينة، وهبُّوا كالنسيم لطافة ورقة، يصاحبون الأرواح قبل الأجسام، والأنفس دون الأبدان.

عـــز العزلـــة

للعزلة.. فوائد كثيرة ومنافع وفيرة، منها: جمع القلب على طاعة الرب وكف اللسان عن الغيبة واللغو ورديء القول والبعد عن

الحاسد والشامت ومتتبع السقطات والفارح بالغلطات والجامع للزلات ومفارقة الثقيل والبعد عن سوء الظن والسلامة من ضياع الزمان الذي هو أشرف العطايا، واليأس مما في أيدي الناس وحبس الفكر على استجلاء الفكر والبعد عن كل مشوش والأمان من لدغ الأقران ومنة الإخوان وحقوق الخلان ومطالب الجيران والابتعاد عن النظر إلى زينة الدنيا والاستحسان لما ذمه الله من زخرفها وعابه من زبرجد غرورها والنأي عن منافسة أهلها ومباراة خدامها ومعادات أبنائها ومحاكات أخدانها في طمعهم وجشعهم.

وفي العزلة.. خلوة للقلب من الهموم وحمية البال من الغموم وسلامة الخاطر من الكدر، ومطالعة العقل للعبر.

وفي العزلة.. الاستعداد للموت والتأهب للفوت وتدبير أمر القوت والنجاة من الغوغاء وأقاويل الدهماء وأراجيف الأعداء وفضول الثقلاء.

وفي العزلة.. الأمان من حيف السلطان لأن في الخلطة فرصة للنمام لنقل الكلام وعدم التحرز من اللسان عن العوام فرب كلمة سقط معها الرأس أو وقع على النفس منها بأس، سببها مجالسة الناس.

وفي العزلة.. التحفظ من الاسترسال في حال الغفلة والانبساط في أحاديث يطير بها الناس فتحمل على غير محملها ويتأولونها على غير تأويلها وتجر على صاحبها الويلات والأمور المدلهمات.

وفي العزلة.. حفظ الأنفاس مع نفائس العلوم وتلقيح الفهوم

بقطوف الحكمة وثمار المطالعة وأبكار الأفكار ونتائج القراءة ودرر الاستنباط وبدائع التأمل. ومجالسة من سلف مع كتبهم وعلومهم وكنوز ميراثهم.

وفي العزلة.. الابتعاد عن أسباب قسوة القلب من كثرة الكلام وفضول النظر والخلطة والمزاح والتهتك في الضحك ومجاراة السفهاء ومداهنة الكبراء ومنافسة الأغنياء ومجادلة الأغبياء.

وفي العزلة.. حفظ الجاه وصون العرض من التبذل.

وفي العزلة.. تعلو قيمة المرء كاختفاء الشمس حتى يعرف نفعها واحتجاب القمر حتى تظهر فائدته فما رفع الدر في النحور إلا لأنه اختفى في البحور.

وفي العزلة.. إقامة ناموس الهيبة وإقامة دولة العز في النفس والناس وحبس الطبع عن سرقة العادات فإن الطبع لص يسرق والنفس تهوى التقليد فمن جلس مع أبناء الزمان وضيع العمر مع من يسمى بالإخوان سرق منهم سقوط الهمم وموت الذمم وبرود العزائم وكثرة الأماني وسماع الأراجيف ونشر المعائب والاشتغال بالتوافه والإقبال على ما يشغل وترك المهمات وهجران الصالحات وحب البطالة والكسل في العبادة والإعراض عن العلم وإزجاء الوقت في قيل وقال وبيع الأيام في سوق الأماني ومشاركتهم في مقاصدهم ومصاحبتهم في مكاسبهم.

مكتبة الكنجرس

دخلت مكتبة الكنجرس بواشنطن عام ١٤١٠هـ فرأيت جبالا من الكتب في كل علم وفي كل فن وفي كل تخصص، طلبنا من مأمورها وكان مصريًا اسم كتاب ليس مشهوراً فضغط زر الكمبيوتر وأخبرنا بمكانه في المكتبة وشاهدت مئات الألوف من هذه الكتب لم تهد الأمة الأمريكية إلى الله، لم تدلهم على عظمته، ولم ترشدهم إلى نوره ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ فإذا رأيت رجلا عنده مكتبة ضخمة فلا تغبطه حتى تنظر لعمله واستقامته واستفادته من هذه المعرفة، وهل لها مردود إيجابي عليه، وعندي أن رجلا عنده المصحف يتدبره ويعمل به خير من رجل معه آلاف المجلدات اشتغل بها ولم تنفعه وهذا أمر معلوم لكن للذكرى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾.

كالعير في الصحراء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ابتسم

إذا اغتممت واجتمعت عليك الهموم والأحزان فابتسم فربما حُطت عنك بها السيئات.

إذا افتقرت ووجدت ألم الحاجة فابتسم فربما كان هذا الفقر خيراً لك منعك من بطر الغنى وكبر الثراء وفتنة الدنيا.

إذا مرضت وصرت طريح الفراش وصاحبت السرير الأبيض فابتسم فهذا المرض غسل لخطاياك ودواء لقلبك ورجعة إلى ربك.

إذا ظُلمت من أحد وأهانك ظالم فابتسم لأنك مظلوم لا ظالم واحمد ربك إذ حماك أن لا تكون مكانه ويكون مكانك.

وإذا مات ابنك وفقدت فلذة كبدك فابتسم لأنه شفيع لك وفرط لك على الحوض وقد ذهب بهمه وبقي أجره وثوابه.

إذا سُجنت مقهوراً ووضعت في زنزانة وحيداً فابتسم فلربما منعك الله بالسجن من معصية وسلمك به من نكبة وحماك من قاصمة. إذاً فابتسم دائماً.

كلمات لمشاهير الأجانب

يقول افريت مارتن: صاحب كتاب نم قليلا تعش كثيراً: إنَّا ورثنا عادة النوم من جداتنا.

ويقول بوناثان سويفت الإنجليزي: أفضل الأطباء في العالم ثلاثة: الدكتور رجيم وهادىء ومرح.

ويقول مرسيه الفرنسي: لن تكون عظيماً إلا بألم عظيم.

ويقول جوستاف لويون: لا يعرف العالم فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب.

ويقول صموئيل جونسون: النظر إلى الجانب المشرق من كل

حادثة أغلى من ألف جنيه في السنة.

ويقول أولسر: اعطنا خبزنا لهذا اليوم فقط.

يقول توماس كارليل: لا تنظر لما يقع في الظلام، بل انظر ما يقع قريباً منك.

يقول ستيفنسون: كل إنسان يستطيع أن يعيش السعادة حتى تغرب الشمس لهذه الحياة.

يقول دانتي: فكر أن هذا اليوم لن ينبثق مرة ثانية.

يقول كاليداسة الهندي: أمس ميت، واليوم مولود، وغداً غائب.

يقول د. جوزيف مونتاجيو ـ صاحب كتاب مشكلة العصبية ـ: أنت لا تمرض مما تأكل لكن من الشيء الذي يأكلك.

يقول شكسبير: لا توقد لعدوك فرنا فتقع فيه.

يقول براندوني: لا تبك على الحليب المراق.

يقول دايل كارنيجي: لا تحاول نشر النشارة، ولا طحن الطحين.

يقول ميلتون: إن العقل يستطيع أن يجعل الجنة جحيماً والجحيم جنة.

يقول نابليون: ملكت الجاه والسلطة والفن ولم أسعد في حياتي إلا ستة أيام.

يقول الفيلسوف أبيكتيتوس: الأفكار الخاطئة في الذهن كالورم في الجسم يجب بترها.

يقول الفيلسوف الفرنسي مونتين: لا يتأثر الإنسان مما يحدث، ولكن بتفكره فيما يحدث.

يقول وليم جيمس ـ أبو علم النفس: حياتك من صنع أفكارك.

يقول شوبنهور الفيلسوف الألماني في كتاب (دراسات في التشاؤم): ثمن الانتقام تدفعه أنت.

يقول الجنرال ايزنهور: لا تضيع دقيقة واحدة في التفكر في أعدائك، امسحهم من الذاكرة.

يقول كونفوشيوس: ليس المهم أن يساء إليك، المهم أن تفكر فيمن أساء لك.

يقول أرسطو: الرجل المثالي هو الذي ينفع الآخرين، والفاشل هو الذي يطلب النفع من الناس.

يقول برلين: إذا ما أصررت أن تكون كما أنت ولا تقلد غيرك صرت فريداً في العالم.

يقول أمريسون: (الاعتماد على النفس): التشبه والذوبان في الآخرين انتحار.

يقول بتهوفن: عاهاتنا تساعدنا على النجاح.

قالو بوليثو: كل أحمق يستفيد من أرباحه، ولكن الذكي من يحول خسائره إلى أرباح.

قال إبراهام لنكولن: لو حاولت قراءة رسائل الشتائم الموجهة لي

لتعطلت عن العمل.

قال بنيامين فرانكلين: عندما تحسن للآخرين تحسن إلى نفسك.

قال فرانسيس بايكون: قليل من العلم ربما يجعلك ملحداً، فإذا تعمقت آمنت بالله.

قال كارل جانج: في كتابه ـ الإنسان الحديث في البحث عن الروح ـ: كل الناس مرضى إلا المؤمنون بربهم.

قال غاندي: من دون الصلاة لأصبحت مجنوناً من أمد طويل.

قال أليكسيس كاريل، الحائز على جائزة نوبل، في كتابه ـ الإنسان ذلك المجهول ـ: أعظم طاقة الإنسان هي الصلاة.

قال توماس جفرسون: اعمل ما تراه صحيحاً وأدر ظهرك لكل نقد سخيف.

قال والت ويتمان: استفد درساً من عدوك أكثر من صديقك.

قال بزر جمهر: الشدائد قبل المواهب كالجوع قبل الشبع يحسن موقعه ويلذ طعمه.

قال أفلاطون: الشدائد تصلح من النفس بقدر ما تفسد من العيش والترف بضد ذلك.

قال أرنولد توينبي: الدعة تنافي الحضارة.

قال أزدشير: الشدة كحل ترى به ما تراه بالنعمة.

قال أبقراط: الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع.

قال الشاعر الإنجليزي تشوسر: التجربة تؤخذ من الكتب، ومن ممارسة أحداث الحياة.

قال ونستون تشرشل: السياسة ابنة التأريخ، والتأريخ ابن الجغرافيا، والجغرافيا لا تتغير.

قالوا لولا أن فرانسوا فولتير ـ الأديب الفرنسي ـ نقد وليم شكسبير وشهَّر به لما ذاع صيته.

قال برتراند راسل: إن روجر بيكون أخرج الفكر الإنجليزي من غياهب الكنيسة، لأنه قرأ للفلاسفة العرب.

يقول كريسي مريسون ـ في كتابه الإنسان لا يقوم وحده ـ: إذا شككت في القدرة فتفكر في النحلة.

قال فيثا غورس: احفظ ميزانك من الندى، وأوزانك من الصدى، أي اللسان من الخنا، والعقل من الهوى.

لا يستوون

مُدح أحد السلف فاحمّر وجهه ونفض يده في وجه السائل وقال مغضباً: أإِلهٌ مع الله؟! أي لا يستحق التعظيم والتقديس إلا الله، ونحن أفرح ما نكون إذا مُدحنا وأغضب ما نكون إذا نُقدنا.

واجتمع على إبراهيم النخعي العالم الزاهد أربعة في المسجد، فقام وتركهم خوفاً من الشهرة. ونحن ينكسر قلب الواحد منّا إذا قلّ مريدوه وطلابه ويطير فرحاً إذا كثروا وازدحموا.

وقال الناس لابن سيرين، وهو من سادة التابعين: صلِّ بنا على جنازة. قال: لا، أكره أن يتفرق الناس فيقولوا: صلّى بنا ابن سيرين. ونحن نتزاحم على الإمامة ونتقاتل على الصدارة.

وكان عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد العابد إذا تكلم فأعجبه الكلام قطعه خوفاً من العجب، ونحن كلما كثر الجمع أمامنا زاد كلامنا وارتفعت أصواتنا وأحببنا الحديث شهوة فيه.

وكان عبد الله بن المبارك العالم الورع لا يكتب رأيه ويقول: من نحن حتى نكتب رأينا. ونحن أشغلنا الناس بمدائحنا فأحدنا يقول: وقد ألفت وكتبت وحققت واختصرت وحفظت ودرست. والسبب أن القوم عرفوا وأنكرنا، ونصحوا وغششنا، وأخلصوا وخلّطنا، أرادوا الله وأردنا مع الله غيره، فنعوذ بالله أن نشرك بالله شيئاً ونحن نعلم، ونستغفره لما لا نعلم.

محمود شاكر، والمتنبىء

وقفت طويلاً مع كتاب المتنبىء لمؤلفه محمود شاكر فعجبت لقوة أسره وتدفقه وهياجه الأدبي وهديره العاطفي، فالرجل كتب

الكتاب بدمه وعرقه وعواطفه وأعصابه فجاء كتاباً ذائعاً مزمجراً متحدِّياً، وهذا يعطيك السر في تفاوت التأليف من مؤلف إلى آخر، فبعضهم إذا ألّف خلب لبك وسحر فؤادك وأجبرك على أن تؤدي له تحية التكريم، والحفاوة والتبجيل، وبعضهم إذا ألّف بردت مشاعره وماتت عواطفه فوضع بين يديك جثة هامدة، لا حراك بها من بارد القول، وميت الكلام، وأكل الميتة حرام، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

المنصب نصب

علماء الملة وأئمة الإسلام لم يكن لهم مناصب دنيوية بل كانوا يفرون من القضاء ويهربون من المنصب ويأبون الولاية لأن ولايتهم لا تقبل العزل ولأنهم موقعون عن رب العالمين فمكانتهم أشرف وأجلّ وأعظم من أن يحتاجوا إلى منصب يذهب بنور العلم ويقضي على بقية الورع ويحرق ورقة الزهد، ولذلك تجد علماء المبتدعة وأهل الدنيا يتهافتون على المنصب فهم المتصدرون في الغالب عند بني أمية وبني العباس وغيرهم من الملوك كما فعل الجهم بن صفوان وبشر المريسي ومحمد بن الجهم وثمامة بن أشرس والجاحظ وأحمد بن أبي دؤاد وابن الزيّات وابن العلقمي وابن السباسيري ونصير الدين الطوسي والأخنائي وابن مخلوف وغيرهم، أما أهل السنة فلم يقبل أكثرهم وغالبهم المنصب مع الترغيب والترهيب وانظر لأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والأوزاعي والثوري والحسن البصري وسعيد بن المسيب وابن تيمية وغيرهم وهؤلاء خلّد الله ذكرهم وجعل لهم لسان

صدق في الآخرين بخلاف أولئك فقد مات ذكرهم وذهبت كتبهم وعفى أثرهم.

الفتيا هي العلم

إذا أردت أن تعرف ضعف طلبة العلم فامتحنهم بالفتيا، لأنها المحك فكلنا يحسن الخطب والمواعظ والتأليف والتخريج لكن النادر من يجيد الفتيا ويوردها على وجهها الصحيح وهذا يدلك على أن الفتيا شرف الدنيا والآخرة أو علم الفقه بالدليل على الأصح وهذا سبب ظهور الأئمة الأربعة على كل علماء النحو واللغة والأدب فإن مجد علماء الفقه وأئمة الفتيا أبد الدهر لأن حاجة الناس إنما هي للفقه وقد تعيش خمسين سنة ولا يسألك أحد عن بيت شعر أو مسألة نحوية أو لغوية، أما الفقه فهو حاجة الناس في كل وقت.

مكانك تحمدي

كل عام يناقش في الجامعات مئات الرسائل من الماجستير والدكتوراه، والرفوف مكتظة والأدراج تريد أن تنقض والقراءة ضحلة والمطالعة هشة والتحصيل هزيل، وإن تعجب فعجب انتفاخ هذه الرسائل بالكلام وتورّمها بالحواشي ومن الذي سوف يقرؤها وغالب الطلبة ما قرأوا كتب الأئمة الأفذاذ كابن تيمية وابن القيم والنووي وابن حجر وابن عبد الوهاب والذي يعجز عن القليل فهو عن الكثير أعجز، والحل الأمثل أن تفهم كتب التراث قراءة وتدبراً ثم يناقش الطالب فيما

قرأ وفهم ليخرج لنا علماء أذكياء بدل أن يضيع العمر في جزئيات وتكرار نقولات وإعادات مؤلفات وذهاب الزمان في الوسائل وبنيات الطريق.

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

ثلاثة أعلام

أدركت ثلاثة علماء من أفضل علماء عصرنا، علماً، وعملاً، وتعليماً، واستقامة وهم: سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ وعجبت لاتباعه الأثر وانتفاعه بالعلم وجمعه لصفات الخير من كرم وحلم وصبر وعلم وتقوى وزهد وحب للخير وتواضع فهو قدوة إمام أحسن الله مثوبته ورفع منزلته وأسكنه الفردوس الأعلى. ومحدث العصر الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني في جَلَدِهِ على التحصيل وحُسن تأليفه وصبره على التحقيق والتخريج وذبه عن السنة واتباعه منهج السلف مع طول العمر في الخير وكثرة التصنيف، بارك الله في عمله وعلمه. وفضيلة الشيخ العلامة/ محمد الصالح العثيمين في قوة فهمه ودقة استنباطه وغوصه على المعاني ومعرفته بالمقاصد وحُسن تعليمه واهتمامه بالدليل وتنوع معارفه مع جودة تأليفه واجتنابه لشواذ المسائل وغرائب الأقوال، جمعنا الله بهم في دار كرامته ونفعنا بعلومهم وأحسن الله لنا ولهم الخاتمة.

نفس متوثبة

لابد أن تكون نفس الخطيب حية متوثبة مفعمة بما تقول، تكاد تسيل مع كلماته وعباراته، ترسل على السامعين حرارة وأثراً، لأن النفس الباردة لا تصلح أن تقدم عطاءً للآخرين.

إن تفاعل الخطيب بما يقول هو أول باب من أبواب النجاح والتفوق واللموع.

إن النفس الغافلة عما يقول صاحبها، البعيدة عن حديثه وكلماته، لا تشع على الآخرين، ولا تتصل بنفوسهم، ولا تمازج وجدانهم، فلا ينبغي للخطيب أن يواجه الناس بنفس فاترة كالَّة، فإن هذا العيب يجري على الكلام فيلقي الكلام ببرود.

والشُّعراءُ يتبعهم الغاوون

أنهاك عن الانهماك مع الشعراء في أشعارهم، فإنهم أهل خيال ومجازفة ومبالغة وهم بعيدون عن الحقيقة إلا من رحم الله فإذا مدحوا أفرطوا وتجاوزوا الحد في الممدوح وإذا هجوا أتوا بكل مقذع وفاحش ثم هم مع الصور الجميلة هائمون في الوصال والعشق يبكون من الهجر والصدود ومع رقتهم في أشعارهم تجدهم قساة قلوب في الديانة قل منهم من يبكي عند سماع القرآن لأن الشعر حجب تلك القلوب عن تأثير القرآن وهم من أقل الناس ذكراً لله لانشغالهم بالمحفوظ من الشعر وانغماسهم في روايته وتذكره والاستشهاد به، فاحذراتباعهم في ذلك

فإنك ممنوع شرعاً لأن العمر أغلى من أن يذهب مع خمريات امرىء القيس وتلاعب أبي نواس وشطحات المتنبىء وكفريات المعري وصوفيات ابن الفارض، ولا بأس أن تسمع شيئاً من شعر الحكمة والزهد أحياناً ويبقى وقتك للكتاب والسنة وما يزيد في عملك ومعرفتك وصلاحك ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

القلب السليم

اغسل قلبك سبعاً بماء الحب وعفّره الثامنة بالعفو والغفران عمن ظلمك وشتمك لتعيش سعيداً ناعم البال هادىء النفس مرتاح الضمير، وعليك أن تعقر عقارب قلبك بسكين الصبر والحلم وأن تذبح ذئب نفسك الأمّارة بسيف الإيمان وأن تنظف فناء روحك من زبالة الأفكار الرديئة وركام الخواطر السيئة وأن تغرس في بستان نفسك أشجار الحكمة وأزهار المعرفة وورود العلم.

شاعر ملأ الزمان والمكان

خرج هذا الشاعر كالبركان الثائر الهادر يقذف بالحمم وأقبل كأنه السيل الجارف الزاحف يقتلع الشجر، ينقل الحجر، يملأ المكان بصخبه وشكواه وتذمره وتمرده، يرسل قصائده عويلاً ونواحاً وثكلاً وحكمةً، يمطر الأسماع كل يوم باحتجاجاته واعتراضاته ونقده وغضبه، يخطف الأضواء ويرغم الجميع على الإنصات له وحده

والنظر إليه بمفرده والاهتمام به ليس إلاّ، تغلي قصائده في قلبه ويشعلها بلوعته ثم يبعثها حائرة فائرة تكاد تشوي الوجوه بحرارتها وتوقدها، رضع اليتم وأكل الجوع ولبس الفقر ورافق البؤس وصحب الظلم، يزور الملوك مادحاً ثم يغار منهم ويحسدهم فيقلب لهم ظهر المجن ويجعل إيوان أحدهم عاليه سافله تمرداً وعناداً وشراسة وشغباً، يمدح الوزراء ثم يتذكر أنه أعظم منهم فيندم على ما فعل ويتوب مما صنع ثم يمحو ذلك بمدح نفسه والثناء على ذاته وتقديس مجده والتنويه بفضله، هذا شاعر عضته الأزمات ولسعته النكبات ومزقت فؤاده الكوارث يسكت يسكت ثم يزمجر ناقماً على زمانه وإخوانه، يصمت يصمت ثم ينفجر صائحاً نائحاً يشكو عصره ويلوم دهره، يهدأ يهدأ ثم يهب من غفوته متمرّداً رافضاً محتجّاً إنه أبو الطيب المتنبىء فهل عرفته؟.

كيف نخاطب الناس؟

نحن بحاجة إلى مران طويل على مخاطبة الناس، ودربة واسعة على الإلقاء والتأثير، تقوم بهذا مؤسسات ومدارس وجامعات تعنى بهذه الجوانب عنايةً فائقة، إنّ الجموع فقيرة إلى خطيب مفوه تصل كلماته إلى الأعماق، ولكل نبأ مستقر، وإن دعاة الفضيلة هم بحاجة ماسة إلى معرفة الطرق إلى القلوب، والسبل إلى النفوس بقراءة مكامن التأثر والاطلاع على أسرار الجذب والإقناع، إن الخطبة جمعية من المواهب والقدرات تجتمع في شخص واحد يملك ناصية البيان،

وزمام الفصاحة، والتميّز في الإيقاع، يقولون: إنّ الخطيب الملهم الفصيح يجد الناس في صوته وأدائه وعرضه متعة لا يجدونها في مشاهدة الحدائق الغنّاء، أو سماع خرير الجداول، وهمس النسيم، وهديل الحمام. وسيد الخطباء وأنبل العظماء هو رسولنا ﷺ، ومن أراد بيان ذلك فعليه أن يطالع في خطبه، وكلماته، وأحاديثه، ليجد البيان في أبهى صوره، والفصاحة في أوج علوّها، وكذلك خلفاؤه الراشدون وجمع من السلف الصالح كابن عباس، وابن الزبير رضوان الله عليهم، ومعاوية، وعبد الملك بن مروان، ومن بعدهم كأبي جعفر المنصور، والمأمون، وكثيرون لا يحصون عدداً، ومن أراد المزيد فعليه بكتاب محمد أبي زهرة في الخطابة وكتاب (خطباء صنعوا التأريخ) لأحمد نور وفن الخطابة (لدايل كارنجي) وغيرهم كثير، والقاسم المشترك بين هؤلاء جميعاً هو القدرة على الاستيلاء على المشاعر وامتلاك العواطف والاستحواذ على النفوس، هناك قطعة من البيان يقولها شخص فلا تقع موقعها، ولا تتجاوز صوت قائلها، وهي في نفسها بديعة باهرة، ويلقي هذه القطعة شخص آخر فيوصلها إلى نفوس السامعين فيخاطب الأغوار والأعماق، ويهبط إلى القرار.. والكلام هو هو ولكن شتان ما بين الخطيبين.

المبادىء الحقة تقوم في غالب أحوالها ومجمل أطوارها على أيدي خطباء لسن.

زرع الفضائل، واقتلاع الرذائل، فن يقدمه الخطباء.

إشعال الحروب، والزحف إلى الموت، واحتساء المنية، ينسجها خطيب مؤثر. إسكات غضب النفوس، وإطفاء الثائرة، وقتل الأحقاد، وبتر الضغائن، يضطلع بها خطيب نابغة.

لماذا لا يكون الخطيب مشبوب العاطفة، عارم الفطنة، جياش الخاطر، ملهب الإحساس، متقد الضمير، لمّاح الإشارة، خاطفاً للأضواء، حي البديهة، هادر الصوت، ساحر الأداء، حلو الإيراد، قوي البرهان، غزير المادة؟

وما أقل اجتماع هذه المواهب في شخص: إن حَسُن الإعداد ضعف الإلقاء، وإن انقدحت البديهة ارتبك اللسان؛ وإن جنحت الروح خفت الصوت.

إلى متى هذا؟

غالب الكتب المحققة والمخرّجة تعيد تخريج كل حديث عشرات المرات في حواشي الكتاب فتجد الحديث الواحد مخرّجاً من قرابة ثلاثين مصدراً أو أربعين مع ذكر الصفحة والجزء والطبعة وتجد نفس هذا الكلام في عشرات الكتب مع تقديم وتأخير طفيف وهذا لا يدل على رسوخ العالم في العلم أو قوة فهمه لأن هذا أصبح عملاً فنيًّا يستطيع أي موظف أو عامل أن يفعل هذا وأكثر منه ويستطيع الباحث الآن أن يضغط زرًّا في الكمبيوتر ليُخرج له هذه التخريجات في دقيقة واحدة، فلماذا تنزل المجلدات بكثرة هذه التخريجات التي نفخت

الكتب وضخمت الرسائل الصغيرة حتى صارت في مجلد كبير وصار متن المؤلف في سطر أعلى الصفحة ثم تبقى الصفحة كلها حاشية ويزيد بعضهم فيترجم للمؤلف في أول الرسالة ترجمة طويلة ثقيلة ويصور صفحات من المخطوطة ثم يفهرس لكل شيء في الرسالة حتى الأماكن والأسماء مع الآيات والأحاديث والآثار والأعلام وهذا في كل رسالة ونعوذ بالله من ثقالة الدم.

اللسان المعبِّر

دعا موسى عليه السلام ربه، فقال: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ ﴾ إن اللسان الفصيح يفعل في القلوب فعل السحر، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحراً» متفق عليه.

اللسان الفصيح هو الذي يخلب الألباب، ويسري أثره إلى أعماق النفس، ويخاطب الوجدان.

اللسان الفصيح آلة طيعة يمتلكها الخطيب الفذ القدير، يصوغ بها هالات من المعاني، ويرسم بها لوحات موحية من البيان.

اللسان الفصيح هو الذي يقدم الحروف للسامع سليمة من العيوب، وصحيحة في مخارجها، صادقة في جرسها، أخاذة في إيقاعها، ينطق الكلمات بلا عجمة، ولا لحن، ولا تعثر، بعيداً عن الارتباك، والالتواء، والبرود.

اللسان البليغ يدفع بالحجج، ويفلج بالبراهين، وتنهال منه الجمل

طليقة هادرة.

لسان فخم وفيه جاذبية. قوي وفيه أسر. صارخ وفيه سحر. نافذ وفيه حلاوة وطلاوة.

اللسان الفصيح كالسيف البتار، يجلو الشبه، ويقطع خيوط الأوهام، ويفصم عرى الباطل.

يقول الله ـ لرسوله ﷺ ـ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ وهذا واجب الداعية أن يبدع في مقاله، ويحسن من لفظه ويصلح من لسانه.

إن العيّ مرض في اللسان، يذهب رونقه، وبهاءه، ومضاءه فلا يكاد يبين.

ولا بد من شحذ اللسان بالدربة والمران والتقويم والتهذيب وإمرار المحفوظات، والمقطوعات عليه كثيراً.

إن سرَّ نباهة الخطيب في لسانه الذي يسعفه في الأزمات، وينقذه في الورطات.

يزمجر به في الجموع، فله في الحشود جلجلة الرعد، وهدير السيول، وقصف الصواعق، وجلبة الريح الهوجاء التي لا تلوي على شيء.

يتدفق بالجمل والعبارات في نسق جميل، وفي نظام بديع، بلا ركاكة أو برودة، أو ثقل. يملأ الآذان مخافة والقلب هيبة والمكان حضوراً، بل يأسر المشاعر أسراً فإما منّا بعد وإما فداء.